

وظيفة المال وتنمية الموارد البشرية



"عمل الإنسان وإن يكن أمثل سبيل إلى تحصيل المال لا يعطيه مطلق التصرف فيه"

من رحمة الله بالإنسان أن سخّر له كل ما حوله ويسّر له ما تقوم عليه حياته وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة، فالماء والهواء وأشعة الشمس ونور القمر وكثير من النعم العامة التي تقوم عليها الحياة لا تسمى مالا، ولا تقوم بمال، مع أنها إذا قيسَت منفعتها بمنفعة نفس ما نقتنيه ونشتريه كان القياس عبثاً أو لوناً من الخبل والجنون.

ويلاحظ مع ذلك أن من رحمة الله كذلك كثرة الكمية في الأشياء التي تعد ضرورية كالمالح والماء والنار والمواد الغذائية، وهذه على شدة الحاجة إليها ميسرة للناس يحصلون عليها بثمن زهيد، ولولا ما ركّز في طباع بعضهم من الطمع والجشع والأثرة ما وجد الفقراء.. ما يجدون من جهد وعناء في سبيل الحصول على القوت، ولعل هذا بعض ما يفهم من قول النبي (ص): "إن الله فرض على أغنياء المسلمين بقدر الذي يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا إلا بما يصنع أغنيائهم" فإن ذلك يفهم منه أن جهد الفقراء وجوعهم سببه صنع الأغنياء، وإذا كان ذلك في المسلمين، وهم الذين فرض الله لفقرائهم حقوقاً في أموال أغنيائهم، فهو في غيرهم أظهر وأكثر، فالوفرة والكثرة في المواد الغذائية والمواد الطبيعية موجودة في هذا الأرض التي خلقها الله جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، وفي السماء التي تمدنا بالصوء والدفع والماء المبارك كما يفهم من قوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ خَلَجَ بأسْفَقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَادَةً مِيتَةً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) (ق/ 9-11).

والمأمل في قوله تعالى: (وَكَايَِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) (العنكبوت/ 60)، وقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا

وَاتَّقُوا لِفَتْنٍ حَظًّا عَلَيْهِمْ بِرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) (الأعراف/ 96)، يجد صدق ذلك التجاوب التي رآها الناس، وفي الواقع الذي يراه: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنذِرُ) (غافر/ 13)، (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) (المالك/ 15)، ولكن الشيطان كما يقول □ فيه: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ) (البقرة/ 268)، فالبلخ وهو بعض ما يطلق عليه اسم الفحشاء والخوف من الفقر - والناس من خوف الفقر في فقر - مما يزينه الشيطان ويحسنه للإنسان، ثم الإسراف في حب المال وما ينشأ عنه أو يتصل به من الطمع والشهه كما يفهم من قوله تعالى: (وَتَأْكُلُونَ ثَمَرَاتِهِ أَكْثَرًا لَّكُمْ * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمٍّ) (الفجر/ 19-20)، كل ذلك وما إليه يسبب اختلال التوازن في المجتمع وسوء التوزيع في الثروة وبغى الناس بعضهم على بعض واستغلال بعضهم لبعض، ومن هنا يدخل في المال ما يشوبه من الظلم والأثم والبغى والعدوان، ويفتح الشيطان لمحبيه طرقاً مختلفة غير مشروعة لاكتسابه، كالغش والربا والسرقة والرشوة والاحتكار توقعاً لارتفاع الأسعار، والتجارة في المحرمات كالخمر والخنازير والمخدرات، وكثير من المآثم والجرائم ترتكب للكسب الحرام.

والمال في ذاته خير كما يقول □: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا ذُحِرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأُولَادِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الَّذِينَ هُمْ) (البقرة/ 180)، وكما يقول تعالى: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَّشَّهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) (العاديات/ 6-8)، فإن معنى الخير فيما ذكرناه المال، وقول □ تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الكهف/ 46)، يدل - كذلك - على أن المال خير، بدليل قوله تعالى: (مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) (الأعراف/ 32)، ولكن هذا الخير دون ما أعده □ لعباده المؤمنين في الحياة الأخرى، وقد لفت القرآن الأنظار إلى أن المال بكل أنواعه هو □، فهو خالق الحب والنوى وخالق الذهب والفضة، وهو الذي ينزل الماء من السماء فتحيا به الأرض بعد موتها، كما يفهم من قوله: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ) (البقرة/ 22)، وقوله تعالى: (فَلَا يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أُنزِلَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنَبًا وَقَضَبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدائقَ غُلَبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَآئِعًا مِّمَّا) (عبس/ 24-32).

هذه الآيات وغيرها يفهم منها أن عمل الإنسان وإن يكن أمثل سبيل إلى تحصيل المال لا يعطيه مطلق التصرف فيه، لأن المال في حقيقة أمر □، كما يقول سبحانه: (وَأَتَوْهُمُ مِنْ مَّالٍ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمُ) (النور/ 33)، والإنسان وما ملكت يده □، بل... كما يقول □: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات/ 96)، ومن ثم كان عدلاً من □ وفضلاً أن يفرض عليه زكاة المال وأن يفرض عليه غير ذلك، الإنفاق على ذوي قرباه إذا اعسروا وأن يثبته على ما ينفقه ويتصدق به على الفقراء والمساكين ذلك لأن ملكية الإنسان للملك إنما هي ملكية نسبية ناقصة لا ملكية حقيقية تامة، والرزق الذي يحصل عليه بسعيه وعمله إنما هو فضل من □ كما يفهم من قوله تعالى: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) (الجمعة/ 10).

فالمال الحلال خير وفضل من □، والإنسان فيه مستخلف عليه لا يحق له أن ينفق شيئاً منه في غير ما شرَّعه □ كما يفهم من قوله تعالى: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنزِعُوا مِمَّا جَعَلَ لَكُمُ مِّنْهُ خُلَافِينَ فِيهِ) (الحديد/ 7)، فالملكية في الأرض وفي المال مجرد استخلاق لا يخرج به المستخلف عن طاعة المستخلف وهو □: (الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (المالك/ 1)، وهذه الملكية النسبية التي يحصل عليها الإنسان يجب أن تكتسب من الطرق المشروعة لتكون ملكية سليمة، وليكون المال حلالاً، فإن المال الحرام خبيث، والمال الحلال طيب، وقد قال تعالى: (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة/ 100).